شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله

في هــذا الشهادة لله تعالى بالتوحيد، وللنبي ﷺ بالرسالة والعبودية. والتشهد مشروع في الخطب والثناء على الله تعالى[1] ، وذلك لأن « التوحيد أصل الإيمان، وهو الكلام الفارق بــين أهــل الجنة وأهل النار، وهو ثمن الجنة، ولا يصح إسلام أحد إلا به »[2]، فناسب أن يذكــر في الخطب والثناء تذكيراً بأصل الدين وأساس الملة وبداية حياة فقهية عامرة بالعلم لــلمرأة . والتوحــيد ليست كلمة تقال باللسان فحسب بل هذه الكلمة لها نواقض تضر بقائلها والنواقض جمع ناقض وهو المبطل والمفسد، متى طرأ على الشيء أبطله، وأفسده، قال تعالى : ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾ (النحل: ٩٢) .

أي أفســدته وأبطلــته، وذلــك كنواقض الوضوء التي من فعلها بطل وضوءه ولزمه إعادته، ومثله نواقض الإسلام إذا فعلها العبد فسد وبطل إسلامه .

ولقد ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله نواقض الإسلام وجمعها في رسالة رائعة من أقواله فيهــا :

والشرك هو : جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وألوهيته، والذي يغلب الإشراك فيه الألوهية .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٢٢ / ٣٩١).

(٢) المصدر السابق (٢٤ / ٢٣٥).

والشرك أعظم ذنب عُصي به الله تعالى وهو أشد نواقض الإسلام جُرماً ، وقد أخذ الله على نفسه أن لا يغفر للمشرك شركه إلا أن يتوب، فلا يكفر الشرك شيء من أنواع المكفرات المعروفة إلا أن يتوب المشرك من شركه، ولذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾(النساء ٤٨) .

وهو الظلم العظيم، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام ٨٢) .

روى أحمد والبخاري ومسلم عن سليمان عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال رسول الله ﷺ ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .

وروى الإمام أحمد والشيخان من حديث منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: إن ذلك لعظيم .. الحديث

وكيف لا يكون أعظم الذنب وأظلم الظلم وأكبر الكبائر ، وهو تشبيه للخالق بالمخلوق، وذنب لا يُغفر، وتنقص نزه الله جل شأنه نفسه عنه، فمن أشرك مع الله غيره فقد حادّ وعاند وشاقّ الله وأثبت له ما نزه نفسه عنه، قال تعالى عن حال المشركين مع معبوديهم يوم القيامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ (الشعراء ٩٧-٩٨) .

وصاحب الشرك محرم عليه الجنـــة : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ، ومحبط جميع عمله: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ والعمل في الآية يشمل جميع عمل العبد ولا يحبط جميع العمل الصالح ذنب سوى الشرك الأكبر، والمشرك حلال الدم والمال : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .

• والشرك بالله ينقسم إلى نوعين :

١- الشرك الأكبر .

٢- الشرك الأصغر .

فالنوع الأول : الشرك الأكبر : مخرج من الملة، مخلد صاحبه في النار، إن لقي الله غير تائب من شركه، وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الخالق سبحانه وتعالى، كالذبح لغير الله لأهل القبور من الأولياء والصالحين أو الجن والشياطين، رغبة لهم أو رهبة منهم، والخوف من أهل القبور والجن والشياطين أن يؤذوه ويضروه، ورجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من كشف الضر، وجلب النفع، وهذا ما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين في هذا الوقت .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (يونس ١٨) .

وهذا تسوية للمخلوق بالخالق قال تعالى عنهم في النار إذ يختصمون : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (الشعراء ٩٧-٩٨) .

فهو تسوية للمخلوق بالخالق في التعظيم، والمحبة التي هي روح العبادة .

• السحر :

وقال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن أبي الزناد حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك. تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به، قالت عائشة رضي الله عنها لعروة: يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها كانت تبكي حتى إني لأرحمها وتقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوج فغاب عني

فدخلت عليَّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي فأبيت وقلت: لا، قالا: فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم، فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً فقالا: لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأبيت فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعررت وخفت ثم رجعت إليهما وقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ قلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك، فأربيت وأبيت، فقالا: اذهبي إلى التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه، فجئتهما فقلت قد فعلت، فقالا: فما رأيت قلت: رأيت فارساً مقنعاً خرج مني، فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك اذهبي، فقلت للمرأة والله ما أعلم شيئاً، وما قالا لي شيئاً فقالت: بلى لم تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري فبذرت وقلت: أطلعي فأطلعت وقلت : أحقلي، فأحقلت ، ثم قلت أفركي ، فأفركت ، ثم قلت: أيبسي، فأيبست ثم قلت: أطحني فأطحنت ثم قلت: أخبزي فأخبزت، فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان سقط في يدي، وندمت، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً. رواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولاً كما تقدم وزاد بعد قولها: ولا أفعله أبداً فسألت: أصحاب رسول الله ﷺ : حداثة وفاة رسول الله وهم يومئذ متوافرون فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، قال هشام: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها.

إنه أحجية الأحاجي ولغز الألغاز وسر من أكبر الأسرار، داء عضال، تفشى بين الرجال والنساء .. الفقراء والأغنياء ، الأميين والمتعلمين ، المرضى والأصحاء ، البؤساء

والوجهـــاء، العالة والرؤساء، إنه الداء الخطير الذي تفشى بين الناس عامة وخاصة إلا من رحـــم ربي، إنه خطر عظيم، خطر على العقيدة، خطر على الفرد، خطر على الأسرة، خطر على المجتمع، خطر على الأمة بأسرها.

- إنه السحر قرين الكفر .

إنـــه كمـــا ينبغي على الأمة أن تعرف الأمراض التي تصيب الأبدان وتفتك بالصحة، فكذلـــك ينبغي لهم أن يعرفوا وأن يهتموا بالأمراض التي تمس الدين بل قد تذهبه بالكلية، ولاشـــك أن أمراض العقائد والقلوب أشـــد ضرراً من أمراض الأبدان لأن مرض الأبدان لا يعـــدو أن يكـــون أثره في الدنيا بينما مرض العقائد ومرض القلوب يكون أثره في الدنيا والآخـــرة.

وإن مـــن أشـــد الأمراض التي قد استشرت وانتشرت مرض السحر وإتيان السحرة، ومـــن هـــنا وجـــب على أهل العلم وحملة العقيدة أن يدفعوا عن حمى الإسلام ويذبوا عن حياضه، وأن يوعوا الناس في أمور دينهم ودنياهم، وبخاصة في هذه الأزمان التي قد تنوعت فيها أمراض العصر، ففي كل عام نصبح بلون جديد من الأمراض، وبالتالي كثر المشعوذون والسحرة والدجالون بحجة معالجة المرضى وتطبيبهم.

فانتشر السحرة والمشعوذون في كل مكان حتى في الدول التي يُدعى أنها متقدمة.

ففي فرنسا يوجد أكثر من ٣٠,٠٠٠ ساحر ومشعوذ.

وفي ألمانيا ٨٠,٠٠٠ ساحر ومشعوذ ... وفي غيرها كثير.

فاعلموا أن السحر حقيقة موجودة، وله تأثير في واقع الناس ، ولو لم يكن موجوداً وله حقيقة لمـــا وردت النواهي عنه في الشرع والوعيد على فاعله ، والعقوبات الشرعية ، على متعاطـــيه، فكـــم فـــرق السحرة بين زوج وزوجته، وبين صديق وصديقه، وتاجر وتجارته، وموظف ووظيفته، وكل هذا حقيقة لا مكابرة فيها.

لقـــد عرف من خلال تتبع أحوال السحرة والمسحورين أن للسحر أنواعاً كثيرة من حيث تأثيرها على المسحور.

فمـــنه ســـحر التفريق الذي قال الله فيه : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: ١٠٢) .

ومـــنه ســـحر العطـــف الذي سماه رسول الله ﷺ التولة حيث قال ﷺ : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » [رواه أحمد وأبو داود].

التولة : هو ما يصنعونه ويزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل، إلى امرأته، وهو ضرب من السحر.

ومن السحر أيضاً سحر التخيّل كأن يرى الشيء الثابت متحركاً، والمتحرك ثابتاً كما قال تعـــالى عن موسى عليه السلام : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (طه : ٦٦) .

ومـــن الســـحر أيضاً سحر الخمول بحيث يحبب إلى المسحور الوحدة والصمت الدائم والشرود الذهني وما شابه ذلك من ألوان السحر وضروبه.

واعـــلموا أن السحر من نواقض الإسلام الكبرى فمن تعاطى السحر أو عمل به فهو كافر خالد مخلد في نار جهنم.

ذكـــر الله تعالى عن اليهود أنهم أعرضوا عن دين الرسول ﷺ وذهبوا ليتعلموا السحر ويعملوا به، وكفروا. ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ (البقرة: ١٠٢) .

قـــال القـــرطبي رحمـــه الله: قال محمد بن إسحاق: لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرســـلين قـــال بعض أحبارهم: يزعم محمدٌ أن ابن داود كان نبياً! والله ما كان إلا ساحراً فأنـــزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (البقرة : ١٠٢) . أي

ألقت إلى بني آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستنجار الطير والشياطين كان سحراً.

واعلموا أن الساحر لا يكون ساحراً حتى يكفر بالله، وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الذي يعلم الساحر السحر إنما هم الشياطين.

ولا يتمكن الساحر من ذلك حتى يكفر بالله العظيم ويستعين بالشياطين من دون الله.

فليس الساحر بنفسه هو الذي اخترع السحر، بل إن الشياطين هم الذين علموه. ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ (البقرة : ١٠٢) .

وقد تواتر النقل بالاستقراء والتجربة والمشاهدة عمن بحث في أحوال السحر والسحرة في إثبات العلاقة والتبعية والانقياد والعبودية بين السحرة والشياطين.

فالسحرة يتقربون للشياطين بما تحبه الشياطين من كل شيء: بعقيدة فاسدة وأعمال خيالية وأكل للمحرمات، الخبائث وتقرب بالنجاسات ووقوع في الموبقات.

وبعد هذا كله إذا اجتاز الساحر امتحاناً يجربه الشيطان عليه بأكل نجاسة وصرف عبادة، ووقوع في أمر لا يجوز ولا يليق حينئذٍ يوقن الشيطان أن تلميذه من السحرة قد تجاوز المرحلة، فيبدأ يسخر له من شياطين الجن من يعينه على إحداث الخلل والمرض والزلل.

وإذا عرفت الساحر فلا يجوز لك المجيء إليه، فإن جئته لم تقبل لك صلاة أربعين يوماً.

روى مسلم في صحيح عن بعض أزواج النبي ﷺ : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ».

وعـــن عمران بن حصين مرفوعاً: « ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحِر له » .

- وللساحر علامات يعرف بها :

١- إذا دخلت عليه فسألك عن اسم أمك فاعلمْ أنه يستعين بالجن.

٢- إذا أمرك ألا تذكر الله ولا تقل بسم الله عند علاجه لك فاعلم أنه ساحر.

٣- إذا أخـــبرك بأمر غيبي كأن يخبرك عن مكان مسكنك أو عن اسمك مثلاً أو اسم أبيك.

٤- يعطي ورقة ويكتب فيها بعض الآيات ككتابة آية الكرسي مثلاً وبعض أسماء الله، وفي أســـفل الورقة يرسم مربعاً ويضع فيه بعض الحروف المقطعة أو أرقاماً وهذه الحروف والأرقام يخاطب بها الجن.

٥- من علاماته أيضاً أنه لا يرفع صوته بما يقول حتى لو طلبت منه ذلك، وربما موه علـــيك فقرأ بعض الآيات بصوت عالٍ ثم يخفض صوته في الباقي، وفيها يطلسم بكلمات وعزائم غير مفهومة حيث يتمتم بكلام لا معنى له، أو أن يعطي المريض أوراقاً يحرقها ويتبخر بها.

٦- أو يأمره أن يعتزل الناس فترة معينة في غرفة لا تدخلها الشمس ويسميها العامة (الحجبة).

٧- وأحياناً يطلب الساحر من المريض ألا يمس ماءً لفترة من الزمن غالباً أربعين يوماً. وهذا يدل على أن الشيطان الذي يخدم هذا الساحر نصراني.

مـــن أسباب كثرة السحرة، ضعف الإيمان وعدم التوكل على الله، ومنها كثرة الخدم والسائقين في البيوت.

وذلـك أن كثيراً من الخادمات قبل أن تأتي إلى أي مكان تمرّ على الساحر ومعها اسم صاحب البيت وأين يسكن ومن ثم تطلب من الساحر أن يخبرها عن هؤلاء، فيقول الساحر هـذا رجـل عنده زوجة واحدة مثلاً، وعنده خمسة أبناء وذلك بواسطة الشياطين الذين في المنطقة.

فيقول لها: إذا أردت شيئاً فأرسلي لنا شيئاً من شعره أو شعر زوجته أو ولده أو شيئاً من لباسهم ونحن نعقد فيه شيئاً من السحر.

ولذلك بعض الناس فطنوا لهذا فيأمر الخادمة أو السائق ألا يقفل الرسالة إلا وقد أطلع على ما في داخلها، وإذا جاءت رسالة لابد وأن تفتح الرسالة بين عينيه حتى يرى ما فيها.

فـإذا علمتم ساحراً في أي مكان أو علمتم من خلال الأوصاف التي قلتها لكم وجب عليكم إبلاغ الجهات المختصة بذلك كهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يوقفوا هـذا الساحر عند حده، فحد الساحر أن يضرب بالسيف لأنه كافر والله قد سمى السحر كفراً ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾(البقرة : ١٠٢).

وعـن جندب مرفوعاً: حد الساحر ضربة بالسيف [رواه الترمذي] . وقال: الصحيح أنه موقـوف. وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة . قال: كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.

وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت.

وبعـد فقد تبين لك أخي المسلم من خلال هذه الخطبة وهذه الآيات والأحاديث أن السـحر كفر وأن الساحر كافر، وأن من يأتي الساحر فهو على خطر عظيم وهو على شفا الكفر عياذاً بالله من ذلك.

ألا تخاف يا أخي من أن تخسر الدنيا والآخرة ..

ألا تـــتوكل عـــلى الله ربنا خالقنا المتصرف في شئوننا الذي ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء. وهذا الداء دواؤه العلاج الرباني وليس العلاج الشيطاني. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء : ٨٢) .

قـــل للطبيب تخطفته يد الردى ... مـــن يـــا طبيـــب بطبه أرداكا
قـــل للمريض نجا وعوفي بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا
قـــل للصحيح يموت لا من علة ... مـــن بالمـــنايا يا صحيح دهاكا
وإذا تـــرى الثعـــبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو ... تحـــيا وهـــذا الســـم يملأ فاكا

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

نعم قد عرّفنا السحر وأنواعه وعلامات السحرة ولكن كيف العلاج وما طرق الوقاية من السحر والسحرة؟

● العـــــلاج : أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يصيبك شيء إلا بإذن الله، ولن تشفى إلا بإذن الله ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ (الأنعام : ١٧) .

ومن العـــلاج بل هو العـــلاج ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء : ٨٢) . نعم هو القرآن لكن الناس قد أعرضوا عن هذا الدواء الرباني فبكثرة قراءة القرآن والنفث على المريض يفك الله السحر عن المسحور بإذنه سبحانه وتعالى.

● الوقايـــة : فبإكـــثار الذكر ومداومة الطاعة والاستقامة على الخير والإعراض عن المحـــرمات وترك الموبقات وأن تحفظ الله بفعـــل أوامره وترك نواهيه ليحفظك في دنياك وأخـــراك.

والإكثار من قراءة القرآن وقراءة الأوراد والأذكار في الصباح والمساء والمحافظة على آيـة الكرسـي وقـراءة المعوذتين وسورة الإخلاص، ففي الحديث أنه من قرأها في صباحه ومسائه ثلاث مرات كفته من كل سوء.

ومـن قرأ آية الكرسي لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان يومه ذلك. ومن حافظ على ذلك كله حفظه الله. فعليه بالرقية الشرعية.

فـإن الإنسان إذا اعتقد اعتقاداً جازماً أن الله جعل الشفاء في كتابه وأن الله قادر على شفائه، وأنه لا يملك أحد من البشر شيئاً من ذلك فإنه يرجى له الشفاء بإذن الله.

والرقـية هي قراءة الآيات والأذكار والأدعية مع النفث على المريض ولا تكون الرقية شرعية حتى تجتمع فيها ثلاثة شروط:

١- أن تكون بالقرآن والأحاديث أو بكلام نافع.

٢- أن تكون باللغة العربية.

٣- أن يكون قلب الشخص معلقاً بالله وأن الشفاء من عند الله.

أيها الأخوة : الرقية ليست خاصة بأناس دون غيرهم فكل شخص يستطيع أن يرقي، فأنـت تستطيع أن ترقي نفسك أو أن يرقيك أخوك أو صاحبك أو زوجك، فليست الرقية حكـراً على أحد، ومن هنا تعجب من بعض الناس كيف يزدحمون على فلان وفلانة وكأن الرقية لا يحسنها إلا هو.

فـتجد هـذا يـأتي من الشمال وهذا من الجنوب وهذا من الشرق حتى يتمكنوا من الحصول على الرقية.

نعم لا شك أن لصلاح الشخص أثرًا في الرقية، ولكن كم من شخص تحقره ويجعل الله الشفاء في رقيته.

ومـــن أراد النجاة من كل هذا فعليه بالاعتصام بالقرآن تلاوة وعملاً وقراءة وحفظاً وعلـــيه بالأذكـــار والأوراد في الصباح والمساء وحين النوم وعند اللباس وعند رؤية المبتلى وعند دخول الخلاء والخروج منه وعند دخول المسجد والخروج منه.

- ومن أنواع علاج السحر:

ما ذكره الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – في رسالة السحر والكهانة.

قال – يرحمه الله –:

- ومن الأدعية الثابتة عنه ﷺ في علاج الأمراض من السحر وغيره وكان ﷺ يرقي بها أصحابه.

(اللهم رب الناس أذهب البأس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً).

ومـــن ذلـــك الرقـــية التي رقى بها النبي ﷺ وهي: (باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيـــك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك) وليكرر ذلك ثلاث مرات.

- ومن علاج السحر أيضاً وهو من أنفع علاجه بذل الجهود في معرفة موضع السحر في أرض أو جبل أو غير ذلك، فإذا عرف استخرج وأتلف بطل السحر.

- ومن علاج السحر بعد وقوعه أيضاً وهو علاج نافع للرجل الذي يحبس عن جماع أهله: أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر فيدقها بحجر أو نحوه ويجعلها في إناء ويصب علـــيها من الماء ما يكفيه للغسل ويقرأ فيها: آية الكرسي، وسورة الكافرون، والإخلاص، والمعوذتين، وآيات السحر التي في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة الشعراء وسورة طه وبعـــد قراءة ما ذكر في الماء يشرب بعضه ويغتسل بالباقي وبذلك يزول الداء إن شاء الله ، ولا بأس من تكرار ذلك إذا دعت الحاجة إليه.

• وأما علاجه بسحر مثله فهذا لا يجوز، فإنه من عمل الشيطان بل من الشرك الأكبر فالواجب الحذر من ذلك.

• ومن العلاج أيضاً علاج السحر بالحجامة.

قال رسول الله ﷺ : (خير ما تداويتم به الحجامة) [رواه مسلم].

ويقـــول ابن القيم إن من أنواع علاج السحر الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، وذلك بالحجامة .

• ومن الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ..

فـــإن هناك من المسلمين من يتخذ من الأمور ما هو منافٍ للتوحيد، وما هو شرك بالله العزيز الحميد، ومن هذه الأمور لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه، ولا شك أن في جَعْل هذه الأمور أسبابًا تعديًّا على حق الله –عز وجل–، وذلك لأنه لا يجوز للمسلم أن يجعـــل من الأسباب ما لم يجعله الله سببًا، ولذلك فإني أكتب هذا الموضوع لكي ينتفع به كل مسلم، ولكي يكون مصباحًا منيرًا ينيرُ الطريق لكل من أراد أن يسير على نهج المصطفى ﷺ ، فكـــان ﷺ أعظـــم الـــناس توكلاً على الله عز وجل ، وكان مع ذلك لا يترك الأخذ بالأســـباب، بل كان إذا خرج إلى الحرب يلبس الدروع ليتوقى السهام، وكان يرقي نفسه بالمعوذات، وذلك لأن فعل الأسباب لا ينافي التوكل، إذا اعتقد الإنسان أن هذه الأسباب لا تـــأثير لها إلا بإذن الله تعالى، بل هذا من تمام التوكل على الله عز وجل، فالتوكل هو صدق الاعتماد على الله – عز وجل – في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب التي أمر الله بهـــا، وليس التوكل أن تعتمد على الله –عز وجل– بدون فعل الأسباب، فإن الاعتماد على الله بدون فعل الأسباب طعن في الله تعالى وفي حكمته، لأنه سبحانه ربط المسببات بأسبابها، ولمـــا كان الأمر كذلك، كان واجبًا على كل مسلم أن يأخذ بالأسباب، دون أن يتعلّق قلبه بها، وذلك لأن في ترك الأخذ بالأسباب أو تعلُّق القلب بها أمران منافيان للتوحيد، بل يجب

أن نأخذ بالأسباب، وأن يكون اعتمادنا على المسبِّب، وأن نعتقد بأن كل شئ بيده سبحانه، وذلك من تمام التوحيد.

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر ٣٨) .

وفي هذه الآية دلالة واضحة على وجوب تعلُّق القلب بالله، فلا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه لأنه لا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شئ لغير الله، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها.

ولا شك أن لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه من الشرك، وهي تختلف بحسب اعتقاد صاحبهما، فإما أن تكون من الشرك الأكبر، وذلك إن اعتقد أنها هي الدافعة الرَّافعة التي ترفع البلاء بعد نزوله، أو تدفعه قبل نزوله، وإما أن تكون من الشرك الأصغر، وذلك إن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثِّرًا بنفسه، وفي هذا الاعتقاد يكون مشركًا شركًا أصغر، لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سببًا، فقد شارك الله تعالى الحكم لهذا الشئ بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سببًا.

والأسباب إما أن تكون شرعية أو قدرية:

فمثلاً : قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء، لما جاء في الحديث الطويل المتفق على صحته أن أبا سعيد الخدري ﷺ رقى بالفاتحة، وأقرَّه النبي ﷺ على ذلك بقوله "وما يدريك أنها رقية"

وأكل المسهل سبب حسِّي لانطلاق البطن، وهو قدريّ لأنه يُعلم بالتجارب.

ولما كان الأمر كذلك، كان واجبًا على كل مسلم أن يلتزم بما كان ثابتاً شرعًا وقدرًا من الأسباب، وأن لا يأخذ من الأسباب إلا ما كان نافعًا خاليًا من الشرك حتى لا يقع

فيما يُغضب الله ورسوله، وحتى لا يجعل نفسه شريكًا مع الله -عز وجل- في جعل ما ليس بسبب سببًا، بل وعليه أن يعتمد على المسبِّب الحقيقي لها وهو الله جلَّ وعلا، وأن يفهم هذه الأمور فهمًا صحيحًا.

قال السعدي رحمه الله في "القول السديد": "ولا بد من معرفة ثلاثة أمور في الأسباب:

١- أن لا يجعل منها سببًا إلاَّ ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

٢- أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسبِّبها ومقدِّرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

٣- أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه".

• وقال الشيخ ابن عثيمين -حفظه الله- في "القول المفيد":

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

١ - من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله، كالجبرية والأشعرية.

٢ - من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

٣ - من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سببًا شرعيًا أو كونيًّا.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيمانًا حقيقيًا، وآمنوا بحكمته، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة".

وقال ابن تيمية رحمه الله في "مجموع الفتاوى" : "وأما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها، فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة

والشـــقاوة بـــدون أن يفعل ما أمره الله"، وقال رحمه الله: "فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قـــدح في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدًا على الله، لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مـــأمور بهـــا فَعَلَهَـــا مع التوكل على الله، كما يؤدي الفَرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل الســـلاح ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها، فهو عاجز مفرط مذموم"

وقال ابن القيم رحمه الله في "مدارج السالكين": "وقد قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأســـباب شـــرك في التوحيد، ومحو الأسباب–أن تكون أسبابًا– تغيير في وجه العقل، والإعـــراض عـــن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد، فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك. والآخر: عبودية وتوحيد.

فالشـــرك: أن يعـــتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، فهو معـــرض عن المسبِّب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورًا عليها، وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها، وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها: فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشـــغله عـــن الالتفات إلى المسبِّب، وأما محوها أن تكون أسبابًا: فقدح في العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية: كان ذلك قدحًا في الشرع، وإبطالا له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبِّب، واعتقاد أنها بيده، فـــإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل : لا يلتفت إلى الأسباب، بمعنى أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ، ولا يخافهـا، فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها – بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها – بل يكـون قائمًا بها، ملتفتًا إليها، ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها، فلا يصح التوكل –شرعًا وعقـلاً– إلا عليه سبحانه وحده، فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده، فهو الذي سبَّب الأسباب، وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سببًا يقتضي وحده أثره: بل لا بد معه من سبب آخر يشاركه، وجعل لها أسبابًا تضادها وتمانعها، بخلاف مشـيئته سبحانه، فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر، ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كـان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته، فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصـوله، والجميع بمشيئته واختياره، فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخـوف إلا منه ، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته ، كما قال أعرف الخلق به ﷺ (أعـوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك) وقال : (لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك).

فـإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب: استقام قلبك على السير إلى الله، ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وبالله التوفيق".

وقال رحمه الله: والعلل التي تتقى في الأسباب نوعان:

أحدهمـا : الاعتماد عليها والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها، فهذا شرك يرق ويغلظ، وبين ذلك.

الـثاني : تـرك ما أمر الله به من الأسباب ، وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا ، وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمـر كله بمشيئة الله ، سبق به علمه وحكمه ، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطي

ولا يمنع ، ولا يقضي ولا يحكم ، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان ما لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها ، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ، ولا تحصل له فلاحًا ، ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريدًا للتوكل، واعتمادًا على الله وحده".

• وطريق العلم بأن الشئ سبب:

إما عن طريق الشرع : وذلك كالعسل مثلاً ، قال تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ومثل قراءة سورة الفاتحة وقد سبق ذكرها، وإما عن طريق القدر: كما إذا جربنا هذا الشئ فوجدناه نافعًا في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بيِّن، أو مثل أكل المسهل وقد سبق ذكره، وأما ما كان غير ظاهر كَوَضْع الحلقة مثلاً، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثرًا بينًا، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلَق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً على اعتقادهم نفعها. وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسي ليس طريقًا شرعيًا لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس سببًا للشرع.

والشاهد من ذلك كله أنه ليس لأحد أن يجعل من الأسباب إلا ما كان سببًا شرعيًا أو قدريًا، وإلا كان مشركًا بالله.

فعن عمران بن حصين ﷺ ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقَةٌ من صُفْرٍ، فقال : ما هذا؟ قال: من الواهنة. فقال: "انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مُتَّ وهي عليك، ما أفلحت أبدًا" (رواه أحمد بسند لا بأس به، وصححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي).

والواهنة : وجع في الذراع أو العضد .

وهـــذا الحديث يُبيِّن أن النبي ﷺ نهاه عنها لأنه اتخذها على أنها تعصمه من الألم، وفي ذلك بيان واضح أن الأسباب التي لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان .

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومن تعلَّق وَدَعَةً فلا وَدَعَ الله له" (رواه أحمد والحاكم)

والتميمة: خرزة كانوا يعلقونها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات.

والودعة : واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين، ويزعمون أن الإنسان إذا علَّق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

وفي قولـــه ﷺ : "لا وَدَعَ الله له" دليـــل على عـــدم جواز ذلك وعلى أنه ليس سببًا شـــرعيًّا ولا قدريًّا، ولو لم يكن كذلك لما دعا عليه النبي ﷺ . فقوله ﷺ : "لا وَدَعَ الله له" يعني: لا تركه الله في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: يعني: لا ترك الله له خيرًا، فعومل بنقيض قصده.

وفي رواية: "من تعلَّق تميمةً فقد أشرك"

وهذه رواية صريحة بأن تعليق هذه الأمور التي لا تنفع ولا تضر من الشرك.

ولذلك ينبغي على المسلم أن يتقي الله –عز وجل– وأن يجتنب الشرك، ويجتنب كل ما يوصله إلى الشرك من الأسباب، وأن يتخذ من الأسباب ما كان مشروعًا، وأن يعلم بأن الله – جلَّ وعلا– هو مسبِّب الأسباب، وهو الذي بيده الأمر كله، فيتوكَّل عليه حقَّ التوكل، وذلـــك بأن يجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتمادُ على الله –عز وجل–، ولا يجوز للمؤمن تـــرك الأسباب، لأن الله –عز وجل– فطر الناس على الأخذ بها، بل لا يكون العبد متوكلاً حقيقة إلا بتعاطي الأسباب، ولهذا شرع النكاح للعفة وحصول الولد وأمر بالجماع، فلو قال أحد من الناس أنا لا أتزوج وأنتظر الولد لعدَّ من المجانين.

وللشرك الأكبر أقسام أربعة :

الأول : شرك الدعوة – أي الدعاء – :

وهـــو أن يدعو العبد غير الله كدعاء الله عبادة ومسألةً، فمن دعا غير الله كدعاء الله فقـــد أشـــرك بالله، قال تعالى عن هذا النوع من الشرك ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (العنكبوت ٦٥) .

يشركون في الدعاء .

فمن كان مراده بالدعاء طلب نفع أو دفع ضر فهذا دعاء المسألة .

ومن كان مراده الخضوع والانكسار والذل بين يدي الله جل شأنه فهذا دعاء عبادة.

والدعـــاء بنوعـــيه دعاء المسألة ودعاء العبادة لا يجوز التوجه به لغير الله، فالدعاء من أعظم العبادات وأفضـــل القربات وأجـــل الطاعات ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة ١٨٦) .

وقال آمراً بدعائه وسؤاله : (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي– أي دعـــائي– ســـيدخلون جهنم داخرين) و (واسألوا الله من فضله) وروى الإمام أحمد وأهـــل السنن عن ذر عن يسيع عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: إن الدعاء هو العـــبادة ثم قرأ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ (غافـــر : ٦٠). ولهذا فمن دعا غير الله كان مشركاً قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾(المؤمنون : ١١٧).

• ويقـــول ابـــن تيمية – رحمه الله – ومن نواقض التوحيد الاستهزاءُ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه فكل هذا كفر، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (التوبة ٦٥) .

الاستهزاء بالدين ردّة عن الإسلام، وخروج من ملّة خير الأنام، وإن كان المستهزيء مازحاً أو هازلاً ، وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (التوبة : ٦٥ ، ٦٦) دال على أن الاستهزاء بالله كفر ، وأن الاستهزاء بالرسول كفر، وأن الاستهزاء بشيء من دين محمد وشريعته كفر، فمن استهزأ بواحد منها فهو مستهزيء بها كلها جميعها .

ونزلت الآية السابقة في قوم منافقين استهزءوا برسول الله ﷺ وأصحابه فحكم الله بكفرهم ، فقد روى ابن جرير وغيره من حديث هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال قال رجل في غزوة تبوك في مجلس مارأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المسجد كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمرو أنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون الآية.

وقد حكم الله بكفرهم، وقطع بعدم عذرهم مع قولهم معتذرين : (إنما كنا نخوض ونلعب) فقال الله تعالى لهم : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)، أي كفرتم بعد كونكم مؤمنين بالله، وهذا الإيمان لا يجعل صاحبه يستهزيء برسول الله أو دينه، ولكن لَمّا كان إيمانهم ضعيفاً قالوا الكفر لاعبين هازلين .

والاستهزاء بدين الله من علامات الكفّار، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان ٤١-٤٢) .

ومن علامات المنافقين خاصة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ (المطففين ٢٩-٣٣) .

والمُستهزيء بالله أو آياته أو رسوله أو شيء من دينه وشريعته، كافر بالله حتى وإن زعم عدم قصده لحقيقة ما قال، وإن صلى وصام، فهو بذلك القول مرتد سواء اعتقده بقلبه أو اعتقد الإيمان بقلبه، ولذا هؤلاء المنافقون في الآية لم يكونوا يعلمون بكفرهم، وظنّوا أنهم معذورون، ومع هذا لم يقبل منهم ذلك، ولم يمنعهم من الردّة، وهذا حُكم الله يحكم ما يشاء لا مُعقّب لحكمه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى (كفرتم بعد إيمانكم) : (دل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا الكفر، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فبين أن الاستهزاء بالله ورسوله يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه) انتهى .

والاستهزاء على نوعين :

أحدهما : الاستهزاء الصريح كمن نزلت فيهم الآية من المنافقين وسبق ذكرهم وقولهم: (ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء) وكقول بعضهم عن الدين هذا دين خامس أو دين أخرق، والأمثلة في هذا النوع لا تحصى .

النوع الثاني : الاستهزاء غير الصريح كالغمز باليد وإخراج اللسان عند تلاوة كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، أو عند شعائر الله ، وكرفع الصوت بالكلام عند قراءة القرآن أو عند سماع قول النبي ﷺ استخفافاً بهما فالاستخفاف والاستهزاء شيء واحد، وغير ذلك وهذا النوع بحر لا ساحل له . والاستهزاء عن أهل الدين والصلاح لأجل دينهم، من الاستهزاء بالدين المقصود هنا .ولعظيم خطير الاستهزاء بالدين حذر الله من الجلوس مع المستهزئين ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ (النساء ١٤٠) .

قـال ابن كثير في تفسيره : (أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم الجلـوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه) .

فضل التوحيد وأثره في تكفير الذنوب

قـال تعـالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُـلْمٍ أُوْلَئِـكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام ٨٢) .

قـال ابـن كثير في تفسير هذه الآية: أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يشركوا به شيئًا: هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

والظـلم هنا في هذه الآية ما يقابل الإيمان، وهو الشرك، فعن عبدالله ابن مسعود ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" شقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا أيُنا لم يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ : ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (رواه الشيخان).

والظلم أنواع:

١- أظلم الظلم، وهو الشرك في حق الله تعالى.

٢- ظلم الإنسان نفسه ، فلا يعطيها حقها ، مثل أن يصـوم فلا يفطر ، ويقوم الليل فلا ينام.

٣- ظـلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدَّى على شخص بالضرب أو القتل أو أخذ مال، أو غير ذلك

فمـن سَـلِمَ مـن هذه الأنواع الثلاثة، كان له الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة.

فأمـــا الأمـــن التام فيكون بالسلامة من الذنوب والمعاصي، فإن لم يسلم من الذنوب والمعاصي كان الأمن ناقصًا.

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، آمن من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ (النساء ١١٦) .

وأما الهداية في الدنيا فتكون بالاهتداء إلى شرع الله بالعلم والعمل، وتكون في الآخرة بالاهتداء إلى الجنة.

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمـــدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورســـوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنـــة حق، والنـــار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمـــل" (متفق عليه).

وتحقـــيق شهادة أن لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف " كل معصـــية، فهي نوع من الشرك"، وقال بعضهم أيضًا: "ما جاهدت نفسي على شئ مجاهدتها على الإخلاص"، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن، فلا يجاهد نفسه على الإخلاص، ولهـــذا قـــيل لابن عباس: "إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة، قال: فما يصنع الشـــيطان بقلب خرب"، وذلك لأن الشيطان لا يأتي ليخرِّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرِّب المعمـــور.

كما أنه يجب على كل مسلم أن يحقق الشهادة بأن محمدًا ﷺ رسول الله، ويكون بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبق ذلك في متابعته ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ويكون عملنا لله جلّ وعلا وليس للنبي ﷺ .

أما ما ينقص تحقيق هذه الشهادة فهو:

١- فعل المعاصي، وذلك لأن في فعل المعصية خروجاً عن اتباع النبي ﷺ.

٢- الابتداع في الدين ما ليس منه ، لأن في ذلك تقرباً إلى الله بما لم يشرعه الله ورسوله.

وفي هذا الحديث فائدة عظيمة وفضل عظيم، إذ يُبيِّن لنا النبي ﷺ أن الله جلَّ وعلا يُدخل الموحِّدين الجنة على ما كان من العمل، وإدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

١- إدخال كامل لم يُسبق بعذاب لمن أتمَّ العمل.

٢- إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل.

وعن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا: لأتيتك بقرابها مغفرة".

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله" (رواه الشيخان).

ولكلمة التوحيد أثر عظيم عند الموت:

يقول ابن القيم رحمه الله : لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها ، لأنها شهادة من عبد موقن بها ، عارف بمضمونها ، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها ، وأقبلت بعد إعراضها ، وذلَّت بعد عزِّها ، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له وأرجى ما كانت لعَفوه ومغفرته ورحمته ، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه ، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت

مشـــغولة بهـــا، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فَوَجَّه العبد وَجْهَهُ بِكُلِّيَّته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمّه عليه، فاستسلم له وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سره وعلانيته، فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامـــتلأ قلبه من الآخرة ، فصارت نصب عينيه ، وصارت الدنيا وراء ظهره ، فكانت تلك الشـــهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهَّرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة، لاستوحش من الدنيا وأهلها ، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه ، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات ، وحـــب الحـــياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي.

وأقوال أهل العلم في ذلك أكثر من أن تُحصى، ولذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يتقي الله عز وجل ، وأن يعلم أن الله كما أنه غفورٌ رحيم ، فهو جلَّ وعلا شديد العقاب ، كمـــا قال سبحانه ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠).